



أسباب تراجع اللغة العربية في الاستعمال وسبل مواجهتها

أ. عيسى العزري



جامعة حسبية بن بو علي الشلف

اللغة العربية هوية أمة، ولغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي والحضارة العربية الإسلامية التي ما زالت آثارها شاهدة في العالم ناهيك عن ثروة مفرداتها وغنى تراكيبها وأصالتها. وبعيدا عن هذا وذاك، فهي لغتنا، فالتمسك بها واجب دون مرأى أو مقارنة بغيرها، فاللغة كالأوطان لا تُعار ولا تُستبدل، فقد اتسمت اللغة العربية بسعتها وثرائها وبما تمتلك من وسائل النمو والتطور من اشتقاق ومجاز ونحت وتعريب⁽¹⁾. وكان هذا التكامل اللغوي عاملاً مهماً في غزو العربية بلدانا شتى من العالم ودخولها أمما عديدة مؤثرة في لغاتها، وهذا ما جعل تلك اللغات تستقبل مفردات جمة من اللغة العربية، فقد التقت العربية بالفارسية والسرانية واليونانية والقبطية والأمازيغية، ولكن جميع أسباب القوة والغلبة كانت إلى جانبها، فقد أضيفت إلى ما كانت عليه العربية في ذاتها من بناء قوي محكم ومادة غزيرة... فكانت النتيجة انقراض بعض اللغات وحلول العربية محلها في البلاد التي تم استعراؤها... كالعراق والشام ومصر، وانحسار الفارسية إلى حدود بعيدة⁽²⁾.



وكانت اللغة العربية لغة العلم العالمية لقرون عديدة خلال ما يسمى في أوربا بالقرون الوسطى، ولقد وضع العلماء والمخترعون والمكتشفون والباحثون المسلمون آلاف المصطلحات العلمية والتقنية باللغة العربية احتوتها الكتب والأبحاث والرسائل العلمية والمعاجم العامة والمتخصصة. ولكن هذه المصطلحات العربية ليست معروفة للباحثين المعاصرين وذلك لأسباب كثيرة منها الانقطاع بين التراث والمعاصرة، ومنها أن معظم كتب التراث مازالت مخطوطة ولم تنتشر وليست متوفرة في المكتبات العامة، وحتى وإن نشرت فإن علماءنا الشباب يفضلون الرجوع إلى المصادر الحديثة.

أسباب تراجع اللغة العربية في الاستعمال

على الرغم من اعتزازنا بلغتنا العربية بوصفها من أقدم اللغات العالمية وأثرها لفظاً، وأدقها عبارة، فإننا نعتزف بأنّها تواجه مشكلة عويصة مصدرها قصور وارتباك في مضمار المصطلحات العلمية والتقنية. وما زال عدد كبير من معاهد التعليم العلمي في الوطن العربي يستعمل لغة أجنبية كالإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية لغة لتعليم العلوم، والهندسة، والطب. ويعزى النقص في المصطلحات العلمية والتقنية في الوطن العربي إلى ثلاثة أسباب رئيسية هي:

أولاً: خلال أربعة قرون من الحكم العثماني والسيطرة الأوروبية على البلاد العربية لم تستخدم اللغة العربية في الإدارة أو التعليم، ففقدت شيئاً من استمراريتها ونموها في هذين المجالين.

ثانياً: وفي تلك الفترة الطويلة وقبيل نهضتنا المعاصرة، لم تكن هناك اختراعات أو اكتشافات أو أبحاث علمية رصينة في الوطن العربي لكي

تصبغ مصطلحات عربية على المخترعات أو المكتشفات، ونحن نعلم أن المصطلحات العلمية يضعها المخترعون والمكتشفون والعلماء الباحثون.

ثالثاً: إن تدفق المصطلحات العلمية والتقنية الجديدة كل يوم من الدول الصناعية يجعل من العسير على العربية مجابقتها واستيعابها بالسرعة اللازمة إذ تقدر هذه المصطلحات الجديدة بخمسين مصطلحاً يومياً⁽³⁾.

وبالإضافة إلى ما سبق لا توجد هيئة لغوية أو علمية واحدة تضطلع بوضع المصطلحات العلمية والتقنية في الوطن العربي، فهذه المصطلحات تضعها مؤسسات وهيئات وجهات متنوعة ومتباينة تنشر في أرجاء وطننا العربي، ونذكر منها:

أ/ الجامعات ووزارات التربية في البلدان العربية.

ب / مجامع اللغة العربية في الدول العربية.

ت / المعجميون الذين يصنفون المعاجم العامّة والمتخصصة، أحادية اللغة أو ثنائيتها.

ث/ الكتاب والمترجمون الذين ينشرون كتبهم ومقالاتهم في شتى فروع المعرفة الإنسانية.

كلّ هذه الأسباب وغيرها تجعل المصطلح العلمي والتقني مشكلة تتوء بثقلها على المشتغلين بالتخطيط اللغوي في وطننا العربي مع الفوضى في تعدد المصطلح للمفهوم الواحد.

إلا أنّ البحث العلمي في العالم العربي يعاني من انقطاع الجهود وعدم التواصل والقطيعة المعرفية في هذا المجال مؤداها عدم التنسيق بين مختلف المؤسسات البحثية والتي لها اهتمامات في مجال دراسات اللغة العربية وهو الأمر الذي يبدو وكأنه مستحيل.



ويرجع هذا الأمر بالدرجة الأولى إلى عدم قيام العمل المؤسسي المنظم فأغلب العمل العربي يعتبر فردياً والفرد مهما أنجز لا يستطيع أن يأتي بعمل خارق، مع ملاحظة أن جهود جماعة أو أمة بشتاتها لا يؤدي عملاً متميزاً، ولذلك فالعمل المؤسسي المنظم هو الذي يتيح الالتقاء بين المؤسسات المنفردة في كل دولة على حدة من أجل تلاقي الأفكار وإنتاج رؤية حكيمة تؤدي في النهاية إلى عمليات تطويرية في اللغة إلا أن ذلك يبقى في إطار الأحلام؛ إذ حتى بعض المؤسسات الموجودة لا تفي بالغرض.

سبل مواجهة التحدي: يتفق علماء اللسانيات على أن من خصائص اللغة بوجه عام قدرتها على التطور والنمو، وذلك باستخدام وسائل صرفية ونحوية لتوليد ألفاظ ومدلولات وتراكيب لغوية جديدة للتعبير عما يستجد من حاجات ومفاهيم في المجتمع. ومن المتعارف عليه أن اللغة العربية هي أطول اللغات العالمية عمراً، وأثراها لفظاً، وأقدرها على النمو اللفظي والدلالي لما تتحلى به من خصائص اشتقاقية فريدة، تؤكد لنا أن بوسع لغتنا العربية أن تعبر عن سيل المفاهيم العلمية والتقنية الجديدة المتدفق باستمرار والمتزايد باضطراد. وليست هذه المرة الأولى التي تواجه فيها اللغة العربية تدفقاً مفاجئاً من مفاهيم إنسانية وعملية لم تعهدها من قبل، بل حدث أكثر من مرة في تاريخها، فقد جاء الإسلام بمفاهيم فلسفية ودينية واقتصادية واجتماعية وعلمية جديدة، فاستجابت اللغة العربية بتوليد المصطلحات التي تعبر عن هذه المفاهيم كالصلاة، والوضوء، والزكاة، والخلافة، والإمامة، والحضانة، والنفقة، وإحياء الأرض الموات⁽⁴⁾ وغيرها، وهي مصطلحات لم توجد في اللغة العربية من قبل بمدلولها الجديد. وفي العصر الأموي أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين التي كانت بيزنطية في الشام وفارسية في العراق. وسرعان ما جادت العربية بمصطلحات جديدة في



الإدارة والسياسة والاقتصاد. فظهرت ألفاظ جديدة كالدينار والدرهم والبريد والديوان وغيرها. وفي العهد العباسي أنشأ الخليفة المأمون دار الحكمة ببغداد لتنسيق عملية نقل فلسفة الإغريق والهنود والفرس وعلومهم وآدابهم إلى اللغة العربية. وسرعان ما زحرت اللغة العربية بمصطلحات جديدة في الفلسفة والمنطق والرياضيات والكيمياء وغيرها، وفي عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية كانت اللغة تزود العلماء المسلمين دوماً بالمصطلح الملائم للتعبير عن مخترعاتهم ومكتشفاتهم ونظرياتهم في العلوم والفنون⁽⁵⁾. لا نريد أن نرسم اللغة العربية بل يرسم الإنسان العربي. وعدم انهزام أبنائها نفسياً واستسلامهم أمام الزحف اللغوي الداهم في مجال العلوم والرياضيات.

بين الفصحى والعامّة: هل اللغة العامية قادرة فعلاً على الوفاء بمطالب الفكر والعلم والتكنولوجيا؟ بالطبع لا ومما أيده كل الباحثين اللغويين تقريباً أن العامية سواء في البلاد العربية أم غيرها من البلدان الأخرى لغة قاصرة جداً في التعبير إلا في المجالات البسيطة. كما أنّها فقيرة فقراً شديداً في مفرداتها ولا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي فقط، إن العامية ظاهرة طبيعية في معظم لغات العالم مادامت لم تتعد حدودها وتنافس اللغة الرئيسية. عندما حاول الغرب القضاء على اللغة العربية الفصحى سعى أولاً لدراساتها وفهمها محاولاً البحث عن نقاط قصورها وعندما لم يجد أقحم العامية في الكتابات كوسيلة لمحاربة الفصحى. بدأت الدعوة إلى استخدام العامية بدلاً من الفصحى في العصر الحديث ببداية ظهور حركة الاستعمار الأوربي، فقد شنت تلك الحركة حملة واسعة النطاق على اللغة العربية الفصحى باعتبارها لغة القرآن الذي هو مصدر



الدين الإسلامي، وباعتبارها الرابطة التي تربط بين العرب في شتى أقطارهم وأمصارهم.

إن اللغة العربية الفصحى هي لغة العلم والأدب وهي اللغة التي يدون بها تراث الأمة وتصاغ بها المصطلحات العلمية والتقنية، ومع ذلك فإن المعجمي أو المؤلف قد لا يعثر على مقابل باللغة الفصحى لأحد المصطلحات فيضطر إلى استعمال مقابل من لهجته الإقليمية، وقد يكون هذا المقابل غير مفهوم للناطقين باللهجات الأخرى؛ لأن الكلمات العامية لا تتمتع بالثبات الدلالي النسبي الذي تتمتع به نظيراتها الفصحى، فالكلمات العامية تختلف مدلولاتها من مكان لآخر ومن زمان لآخر بصورة أسرع وأكبر⁽⁶⁾. والعامية لغتنا التي ولدنا عليها ونتعامل بها إلا أن هناك مستويين للتعامل: المستوى اليومي التعامل في السوق والشارع، والمستوى الثقافي هو الذي يكون باللغة العربية الفصحى التي تعتمد على التعليم والثقافة والقراءة المتتالية⁽⁷⁾. والواقع العربي يكشف أن اللهجات العامية لا تساعد على التواصل بل التواصل يكون باللغة العربية.

واللغة العربية قادرة على مواجهة التحديات سواء تحديات العولمة أم التكنولوجيا أم اللغة شرط أن نعتقها من أوهامنا، وإذا أردنا لها أن تساير الحدث فما علينا سوى أن نهتم بأنفسنا أو لا كأمناء عليها وكباحثين وكمهتمين وعلماء، ونزيل الغشاوة التي وضعناها على عيوننا معتقدين أنها في خطر.

الحلول المطلوبة للرقى باللغة العربية:

[أ] تبسيط اللغة العربية لدارسيها وتيسير النحو باستخدام الإمكانيات الحديثة.



[ب] نشر اللغة في وسائل الإعلام والصحف حتى تكون قريبة من الأذان والمفاهيم.

[ت] التركيز على استخدامهما في برامج الأطفال والكتب الخاصة بهم بطريقة مشوقة حتى يألفها الطفل قبل دخول المدرسة أيضاً.

[ث] منع المدرسين من استخدام العامية بالمدارس وتشجيع الطلبة على استخدام الفصحى، ويكشف هذا دور مدرّس اللغة العربية وعلمه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، إذ إنّنا عندما نطالب بتأهيله لتحمل دوره يجب أن لا نتغافل عن شركائه في هذا الدور من مدرسي جميع المواد؛ إذ أنّه في رأي البحث "لا يوجد مدرس لغة عربية، ولكن كل مدرس يجب أن يُدرّس باللغة العربية" بمعنى إنه هناك مدرس نحو وشعر وبلاغة غير أن مدرّس العلوم عليه التحدث باللغة العربية بأسلوب عربي؛ وعليه أن يحاسب طلابه على الخطأ في الأسلوب والأخطاء الإملائية والنحوية أيضاً؛ وبهذا التكثيف يمكن للطلاب أن يعي لغته الأم ويتقنها. هذا الكلام يقودنا للبحث عن كيفية تأهيل مؤطرين جدد من المدرسين يستطيعون فعلاً القيام بهذا الدور وإعادة تأهيل الفئة الموجودة الآن فعلاً.

[ج] العودة لتحفيظ القرآن الكريم والأشعار البليغة والنثر ذي القيم والمبادئ والأخلاق الفاضلة.

أما بالنسبة للحاق بالركب العالمي فيجب أن نطبق ما سبق ذكره من استغلال إمكانيات الحاسب في المواد اللغوية لخدماتها كما سبق أن أوضحنا

(8)



إنشاء معامل للغة العربية على غرار معامل اللغات الأجنبية والتي تحقق التعايش مع اللغة العربية والانجذاب لها، خاصة من قبل صغار السن، هذه المعامل أيضاً يمكن أن تطبق على الحاسب الآلي وبمرور الوقت تصبح في متناول الجميع.

دور المناهج التربوية في المحافظة على اللغة: باتت الحاجة ملحة أكثر من أي وقت مضى لتطوير مناهج اللغة العربية، بحيث يمكن توجيهه نحو غاياته الحقيقية، واعتماد مدخلي الاتصال والوظيفية في اختيار محتواه وأنشطته، وتقديمه بحيث يكون مزوداً بعناصر الجذب والتشويق، وتخليصه مما يعانيه من عيوب في أهدافه، ومحتواه، وأنشطته، وخبراته، وطرق تدريسه، وأساليب تقويمه؛ ليكون مؤهلاً ليأخذ بيد المتعلم للاستعداد لتحديات العولمة، ومواجهتها، والتعامل معها بما يتناسب ومعطياتها. ويشكل مناهج اللغة العربية بفروعه اللغوية والأدبية مكوناً أساساً للمناهج الدراسي في بلدان الوطن العربي، حرصاً على تمكين الناشئة من مهارات اللغة العربية، وإكسابهم المعارف المتصلة بها، وغرس قيم الاعتزاز بها، والمحافظة عليها في نفوسهم، لبناء شخصية عربية ذات كيان متميز، مستمد من تفرد المجتمع العربي، وقيمه، وعاداته، مبني في الوقت ذاته على القدرات الذاتية، والخصائص الفردية لكل فرد⁽⁹⁾.

إعلان قوانين لحماية الطفل العربي إن القوانين الرادعة والعقوبات الصارمة تحيل بين أفراد المجتمع وبين كل خطأ. إن القوانين الأجنبية جميعها تعطي الطفل وهو جنين في بطن أمه حقوقه كاملةً وترعاه وتراقبه



خطوة بخطوة ممّا يؤهله للعطاء والإبداع. يجب أن تتوفر في المجتمع العربي مثل هذه القوانين⁽¹⁰⁾.

والقراءة مثلاً من المسلم به أنّها وسيلة ضرورية للحصول على المعرفة التي أنتجها العقل البشري قديماً وحديثاً، بما فيها من حقائق، وآراء، وأفكار ومشاعر، وخبرات، وتجارب، وبها تتوسع آفاق عقل المرء، وتتغذى مشاعره، وتصل خبراته، وتنمو ثروته المعرفية، فيصبح أكثر قدرة على الاستيعاب والتحليل والنقد، وعندئذ يمتلك ناصية التعلم الذاتي، الذي أصبح ضرورة في وقت انفجرت فيه المعرفة، وتضاعف حجمها، وأصبح لزاماً على المرء أن يتعامل مع المادة الضخمة التي تجد طريقها إليه من خلال الوسائل المطبوعة والإلكترونية، وأن يتمكن من انتقاء ما يحتاجه منها، وتمييز غثه من ثمينه⁽¹¹⁾، ولنا في الطفل النابغة الجزائري القدوة الحسنة الذي استطاع أن يحصل على الجائزة الأولى في مسابقة المطالعة الدولية وهو في سن السابعة من عمره.

التعريب عامل مهم للحفاظ على سلامة العربية: إنّ التداخل اللغوي واقع لا ريب فيه، وهو ظاهرة لغوية بارزة في أغلب اللغات إن لم نقل جميعها منذ القدم، فقد صاهرت العربية أغلب لغات الأمم القديمة والحديثة، وكانت معيّناً فياضاً لا ينضب في إغارة تلك الأمم ما تحتاجه من الألفاظ الحضارية، وكذلك كانت اللغة الإغريقية رافداً لا غنى عنه للألسن السلافية، لاسيما اللغات الروسية، فلا مناص من تداخل اللغات ما دامت البشرية سائرة في ركب التقدم العلمي والحضاري، ولكننا حين نقر بذلك لا يعني إقرارنا هذا بأن التداخل اللغوي أمر لا بد منه لإقحام اللغة بكل غث وسمين من الألفاظ الأعجمية وإنما نريد أن نؤكد أن الأمم في نشوئها وارتقائها، لا



بدلها من التعامل والتفاعل مع غيرها وهذا الأمر يجعلها في تداخل مستمر مع غيرها، فتقترض ما هي بحاجة إليه، لسد عوز لغوي، وتسمية مسميات جديدة، واستحداث ألفاظ جديدة.

لقد نشطت حركة التعريب في الوطن العربي⁽¹²⁾ نشاطاً ملحوظاً، لاسيما في الربع الأخير من القرن العشرين، وهي الآن في وضع أفضل ممّا كانت عليه على الرغم من الصعوبات التي تعتري مسيرتها . فالتعريب حقاً ليس بالأمر اليسير السهل المنال، فإنّه تغير لغوي كبير يحتاج إلى مزيد من الوقت والجهد والوعي والثقافة. ونجاحه يتوقف على الاستعمال إلى حد كبير، فما قيمة المعربات المقترحة للألفاظ والمصطلحات الأجنبية الغازية، إن لم يجر بها الاستعمال فعلاً في الحديث والكتابة، فإن اللغة تحيا بالاستعمال والشيوع.

وقد تمخضت حركة التعريب في السنوات الأخيرة من القرن المنصرم عن آثار مجدية تبشر بخير عميم، وتشجع على المضي في هذه السبل، فكان من ثمراتها الطيبة أن تراجعت أو اختفت ألفاظ ومصطلحات أعجمية دخيلة، أو كادت تنزوي وتهجر بعد أن حلت محلها ألفاظ ومصطلحات عربية أصلية من نحو الحافلة بدلاً من (باص) وهاتف بدلاً من (تلفون) ومذياع بدلاً من (راديو)، وحلقة دراسية بدلاً من (سيمنار) وصك بدلاً من (شيك)، ومثل هذا كثير في لغتنا المعاصرة. ولا يمكن أن ننكر ما للدوافع العربية من أثر قوي في نشاط حركة التعريب في الآونة الأخيرة، فإن علماء العربية يجدون في تعريب المعارف والعلوم، لا سيما في المؤسسات التربوية والتعليمية عاملاً مهماً من عوامل الحفاظ على سلامة العربية التي ما انفكت عراها قوية على الرغم من امتداد مخالف أعدائها إليها. ولقد أسهمت



مؤسسات عدة في عملية التعريب على مستوى الوطن العربي، وكان للمجامع اللغوية اليد الطولى في ذلك، إذ رفدت المختصين من أرباب العلوم والفنون المختلفة بما هم بحاجة إليه من المصطلحات المعربة فضلاً عن الجامعات والمؤسسات الأخرى. إن عملية التعريب في مختلف مجالات الحياة، هي عملية مهمة وواجب حضاري وثقافي، تتم عن وعي لغوي أصيل وتعبر عن مسؤولية لغوية كبيرة تجاه لغة القرآن الكريم ولغة الحضارة والتاريخ والتراث، ويجب أن تتحمل الأقطار العربية كافة أعبائها وتضطلع بالقيام بها على خير قيام في سياستها التربوية والتعليمية والعلمية، إن أي تعثر أو إبطاء في هذه الحركة يعني خيبة أمل لغوية للعرب، ونكسة مريرة للغتهم وحضارتهم وتاريخهم، كما يعني نكسة حضارية وثقافية لهم، وطعنة نجلاء في روح العربية، وتشكيك في قدرتها، والإيهام بقصورها وتخلفها وهي في حقيقة الأمر ليست كذلك أبداً. لقد نشطت حركة التعريب في الوطن العربي نشاطاً ملحوظاً، لاسيما في الربع الأخير من القرن العشرين، وهي الآن في وضع أفضل مما كانت عليه على الرغم من الصعوبات التي تعترض مسيرتها. فالتعريب حقاً ليس بالأمر اليسير السهل المنال؛ فإنه تغير لغوي كبير يحتاج إلى مزيد من الوقت والجهد والوعي والثقافة. ونجاحه يتوقف على الاستعمال إلى حد كبير، فما قيمة المعربات المقترحة للألفاظ والمصطلحات الأجنبية الغازية إن لم يجر بها الاستعمال فعلاً في الحديث والكتابة، فإن اللغة تحيا بالاستعمال والشيوع.

دعم اللغة العربية في المجال الرقمي: من الجهود العربية البارزة على تحقيق موقع أفضل في مجتمع المعرفة، وهو أحد أبرز وأهم مواقع التبادل الثقافي العربي، ويشكل نواة مهمة لمكتبة رقمية عربية شاملة، يعمل



في ذلك فريق عربي كبير من التقنيين العرب العاملين في مجال تقنيات المعلومات، لجعل هذا الموقع مشروعاً حضارياً متكاملًا؛ حيث تم رقمنة أكثر من 600 كتاب إلى الآن.

مكتبة الإسكندرية بجمهورية مصر العربية: إحدى منارات الرقمنة في العالم العربي، فقد أطلقت العديد من المبادرات والمشاريع التي تقوم بها فرغم مرور ثلاث سنوات على افتتاحها، فسنجد أن موقع المكتبة يحتوي على ست مكتبات متخصصة، وما يقارب الـ 10 بلايين صفحة نصوص، ويعد هذا المحتوى أكثر من ذلك الموجود في مكتبة الكونجرس، كما هو موثق في موسوعة ويكيبيديا بالنسخة العربية.

ومن المشروعات الريادية التي تقوم بها المكتبة لتعزيز المحتوى العربي على الإنترنت مشروع إعادة نشر كتب التراث والمخطوطات التراثية، فضلاً عن مشروع الأرشيفات الرقمية لزعماء مصر، ومشروع موسوعة الحياة العربية، ومشروع المكتبة الرقمية العالمية، المكتبة الرقمية العربية، ولغة التواصل الرقمية وغيرها.

تأهيل الجامعات وهيئات البحوث للتصدي لطوفان المعلومات والعولمة لدور الجامعات وهيئات البحوث في تأهيل العربية أهمية أساسية، فعلى هؤلاء تُعقد الآمال فهم أصحاب العزائم لتخليص الأمة العربية من أزمتها بصفة عامة واللغة العربية من محنتها بصفة خاصة؛ ولذلك يجب عليهم أن يعوا أهمية اللغة الأم في حياة الشعوب، ومن ثم دور اللغة العربية الأهم كونها اللغة الأم ولغة قومية عربية ولغة الدين الإسلامي هذا الدور الذي وعاه الآخرون بدليل وجود أكثر من 67 إذاعة عالمية ناطقة باللغة العربية.



خطورة نشر التعليم باللغة الأجنبية وحدها: يقول المربي الإنجليزي

نيقولا هانزا في كتابه "التربية المقارنة" شارحا خطورة التعليم باللغة الأجنبية على كيان الأطفال وشخصياتهم "هناك فوضى كثيرة تحدث لأولئك الذين يستخدمون اللغة الأجنبية كأداة للتعليم في مدارسهم بدل اللغات القومية، ففي المدرسة يكون الأطفال قد ملكوا ناصية الحديث بلغاتهم الأصلية، ويكونون قد كَوَّنوا حصيلة لغوية تغطي معظم موضوعات الانطباعات الحسية، ووجوه النشاط اليومي ثم عليهم في المدرسة أن يضيفوا إلى هذا الأساس اللغوي الذي يغطي وجوه النشاط الحسي يضيفون إليها الأفكار والعلاقات المجردة معبرًا عنها بلغة أجنبية جميعًا، فقولهم حينئذ تصبح منقسمة إلى قسمين منفصلين تمام الانفصال أحدهما للأشياء العادية والأعمال التي يعبر عنها باللغة الأصلية أو اللغة الوطنية أو اللغة الأم، والثاني للأشياء التي ترتبط بالمواد الدراسية في المدرسة وبعلم الأفكار المعبر عنها بلغة أجنبية ونتيجة لذلك كما يقول المربي فإن هؤلاء الأطفال يعجزون عن التحدث عن المواد التي تعلموها في المدرسة بلغتهم الأصلية وهذا ما يطلق عليه اسم "العقل المبلبل" وبذلك يكونون ضحية الازدواج اللغوي الذي سيطرت فيه اللغة الأجنبية على اللغة القومية الحيوية. إن اللغة العامل الأساسي في قيام وحدة الشعوب على أسس صلبة قوية. فقد وجدت على سبيل المثال لا الحصر، اللغة الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر بين الألمان بعد أن كانت ألمانيا منقسمة إلى 360 دويلة صغيرة ضعيفة. ووحدت اللغة إيطاليا بين سكان إيطاليا وجعلتهم دولة واحدة بعد أن كانوا عددًا كبيرًا من الدويلات الصغيرة الضعيفة. وعلى أساس اللغة المشتركة استقلت دولة بولينا، ووحدت أقطارها الثلاثة التي كانت تحت



سيطرة روسيا وألمانيا والنمسا. وانفصلت هولندا عن بلجيكا على أساس اللغة كما انفصلت تركيا عن البلاد العربية بسبب الاختلاف في اللغة مع أن الدين الإسلامي يجمع بين العرب والأتراك مما يدل على خطورة اللغة في شخصيات الشعوب وكيانها القومي⁽¹³⁾.

تدريس اللغة الأجنبية في سن مبكرة وأثاره السلبية: إن الناشئ في أية دولة أجنبية يدرس لغته الأم في بداية مراحل التعليم دراسة وافية حتى يتمكن من إجادتها والتعبير بها عن فكره وتصورات، ويرث من معلميه وأهله حبها وتقديرها فنجد أنه يحرص عليها حرصه على كيانه ووجوده. إنه لا يستخدم سواها في كلامه رغم إتقانه لها إلا مضطراً أو للإمام بثقافات الدول الأخرى فقط. أمّا ما يدعونا للعجب هنا في الدول العربية أن اللغة العربية تدرس كمادة ثانوية وبطريقة منفرة لا توائم العصر، فنجدها أقل المواد تحصيلاً من قبل الطلبة بعكس المواد الأجنبية. ربما لا يدعو هذا للعجب لو عرفنا أن الوقت المخصّص لها لا يكفي لشرحها والاهتمام بها علاوة على انخفاض مستوى المدرس إذ إنه في بعض الأحيان لا يكون متخصصاً أيضاً.

إن الطالب العربي لابد له من الإلمام بلغة أجنبية "كاللغة الإنجليزية أكثر لغات العالم تداولاً" لكي تتيح له التواصل الحضاري مع الحضارات الأخرى والإلمام بالثورة المعلوماتية المحيطة بنا. ومع أن تعليم اللغات الأجنبية ضرورة إلا أنه سلاح ذو حدين إذ إن اللغة الأجنبية يمكنها أن تكون أداة تواصل مع الآخرين أو أداة لطمت الهوية والغزو الثقافي. والاحتمال الثاني هو المرجح الآن إذ إن تعليم اللغة الأجنبية يبدأ في سن مبكرة وربما يبدأ مع اللغة الأم أيضاً مما أدى لتخلف الدارسين عن

استيعاب لغتهم الأم ذاتها. وقد أثبتت الأبحاث وجوب عدم تعليم لغة أجنبية قبل سن "الثانية عشرة" على الأقل وحتى يكون الطالب قد وعى هويته وأتقن لغته الأم، واستوعب تاريخه وعرف علوم التراث والاجتماعيات وتكونت شخصيته وهويته العربية.

دور الأسرة في تعلم اللغة الأجنبية: يؤدي تعلّم اللغة الأجنبية في سنّ صغيرة إلى انتماء الطفل لهذه اللغة وانجذابه إليها وكأنّها لغته الأم. والأسرة تخطئ بتشجيع الطفل عند نطق الكلمات الأجنبية وتبدي سرورها وكأنه اجتاز الحاجز الحضاري والثقافي بنطقها. وبالطبع نفس الشيء لا يحدث بنفس القدر عند النطق باللغة الأم مما يولد لدى الطفل أهمية لهذه اللغة عن لغته الحقيقية ويضيع منه انتماؤه وولائه غير مدرك لنفسه هوية. ثم يأتي دور مدارس اللغات التي هي في حقيقة الأمر بلاء لا يستهان به ففي هذه المدارس تتوفر للدرس اللغوي باللغة الأجنبية ما لا يتوفر للعربية.

التجربة الفرنسية: في عهد الرئيس ميثران شعر الفرنسيون بأن اللغة الفرنسية قد أصبحت مهددة وتعاني من التراجع على الصعيد العالمي مع انحسار الاستعمار المباشر، وبسبب ذلك فإن دولة فرنسا قد بدأت تصبح في مصاف الدول ذات المرتبة الثانية في العالم بعد أن كانت فرنسا على مر التاريخ من دول الصف الأول دائما، وبدأت تجاهد الحركة الفرانكوفونية على بقاء نفوذ الثقافة الفرنسية في العالم بعد انحلال إمبراطوريتها... فقامت عدة مراكز استراتيجية بدراسة سبب هذه المشكلة، ووصلت إلى أن أحد أسبابها هو ضعف اللغة الفرنسية وقلة انتشارها في العالم بعد هيمنة اللغة الانجليزية. فقاموا بإنشاء مشاريع طويلة الأجل لتقوية اللغة الفرنسية ونشرها في العالم أجمع وبعد سنوات



طويلة من هذا ربما ترون بأنفسكم ما الذي وصل إليه الكيان الفرنسي الآن
(14).

أما بالنسبة لمواجهة العولمة فأفضل مثال على المحافظة على اللغة والهوية هو ما قامت به فرنسا التي عملت عن الدفاع المستميت عن اللغة الفرنسية بمجرد أن أحسّت بزحف اللغة الإنجليزية من باب العولمة.

لقد صادق برلمان الثورة الفرنسية قبل قرنين على قانون صارم لتعميم اللغة الفرنسية تضمن مادة جزائية، نصت على أن كل من يخالف هذا القانون ابتداء من وقتها ويحرر وثيقة بغير الفرنسية، يطرد من الوظيفة ويسجن ستة أشهر⁽¹⁵⁾. أن المشرّع الفرنسي تدخل فور الإحساس بالخطر لسن قوانين تحفظ للغة الفرنسية مكانتها ومن أهمها قانون "لزوم الفرنسية" الذي صدر عام 1994 ونص على ما يلي:

- منع أي مواطن من استخدام ألفاظ أو عبارات أجنبية ما دامت هناك ألفاظ أو عبارات مماثلة، إصدار أي منشورات باللغة الفرنسية وكذلك الوثائق والمستندات والإعلانات المسموعة أو المرئية المعروضة على الجمهور وكافة مكاتبات الشركات على الأراضي الفرنسية، حتى وإن كانت أجنبية. كذلك شمل القانون كل المحلات التجارية والأفلام الدعائية التي تبث عبر الإذاعة والشاشة المرئية؛

- إلزام كل مشارك فرنسي في أي مؤتمر بالتحدث باللغة الفرنسية وطبع الأوراق باللغة الفرنسية؛

- أما بالنسبة للمؤتمرات الأجنبية في فرنسا فيطالب الباحثون الأجانب أيضا بنشر الأبحاث باللغة الفرنسية؛



- لا يجوز التمويل المالي للمؤتمرات التي لا تعتمد اللغة الفرنسية لغتها الأساسية؛

- أي مطبوعات ومسابقات ومنشورات لا بد أن تكون باللغة الفرنسية.

التجربة اليهودية: قبل قيام دولة إسرائيل كان يهود (الشتات) تتكلم كل جماعة منهم بلغة الدولة التي يعيش بها ويعتبرها لغته حتى قام المفكرون اليهود وأدركوا أنه ما من حضارة بدون لغة ولكي يحيوا حضارتهم لا بدّ من إحياء لغتهم أولاً. وبدأت الجماعات اليهودية في نشر اللغة العبرية وسط اليهود بل أنّ أحد اليهود الذي كان يؤمن بتلك الفكرة قد أجبر عائلته وأطفاله أن يتكلموا بالعبرية داخل المنزل للأبد. والآن بعد نجاحهم في تكوين دولتهم فالجامعات في إسرائيل لغتها الأولى هي العبرية حتى في الأقسام التخصصية الدقيقة مثل الطب. وهنا أستعيد عبارة مفكر يهودي قالها في نهاية القرن الـ19 على مشارف إعلان الدولة اليهودية. قال إيلعازر بن يهودا "لا حياة لأمة دون لغة!" وبدأ تنفيذ مشروع استمر 50 عاما تحوّلت العبرية خلاله من لغة دينية ميتة إلى لغة تدرس من الروضة حتى الدكتوراه في علوم الفضاء، فنجت اللغة وتجسدت الأمة⁽¹⁶⁾! ولنا في التجربة الفرنسية واليهودية الأسوة الحسنة في صيانة لغاتهم والمحافظة عليها، فما أكثر العبر وأقل الاعتبار.

من تقرير صادر عن مؤسسة المشكاة أن نسبة عدد المشتغلين بالبحث العلمي في إسرائيل إلى عدد السكان يبلغ مائة ضعف هذه النسبة في مصر هذا عن الكمّ أمّا عن الكيف، فإنّه تكفي مقارنة بين المركز القومي للبحوث عندنا ومعهد ويزمان في إسرائيل، أمّا عن الأداء فيكفي أن نذكر كمّ الأبحاث العالمية التي ينتجها المعهد⁽¹⁷⁾.



إنّ إسرائيل عملت على إحياء العبرية رغم أنّها لغة ميتة. وأنّ كثيراً من مواطني إسرائيل كانوا مهاجرين من بلاد مختلفة ولا يعرف أكثرهم غير لغة هذه البلاد فرض عليهم تعلم العبرية وأصبحت هي اللغة القومية الوطنية المتعامل بها في شتى الميادين. إن إسرائيل لم تكتف بهذا فقط بل فرضتها على العمال العرب في المحافل اليهودية. وإسرائيل هذه عملت على فرض العبرية على الصعيد العالمي عن طريق القيام بنهضة علمية قوية حرصت فيها على تقديم أبحاث على أعلى المستويات كما حرصت على عمل مؤتمرات لجذب الباحثين لإسرائيل وإرسال باحثيها للخارج للإطلاع على أحدث الأبحاث.

ثم إنّّه يدرك بذلك أنّه سيخسر خسارة عظيمة، لو أزيحت هذه اللغة، واستبدلت بها لغة أجنبية أو لهجة عامية، فلن يتهياً له أن يتصل بالتراث العلمي والأدبي لأسلافه، ولن يتاح له أن يكون الأخوة اللغوية التي تصله بعدد كبير من البشر على امتداد رقعة واسعة من المعمورة؛ فلا تكون النتيجة إلا العزلة، وضيق الأفق، والتوقع في إطار إقليمية ضيقة⁽¹⁸⁾.

خصائص العربية كلغة حية:

- [1] لغة القرآن الكريم.
- [2] الوضوح والسهولة والمرونة والتطور.
- [3] درجة التنظيم.
- [4] توفر وسائل النمو العقلي: - أ. الاشتقاق. ب. الإلصاق.
- [5] الاختصار والإيجاز لقد عمدت العربية إلى اصطناع بعض الوسائل التي تمكنها من تحقيق هذه الخاصية:



ظاهرة تعدد المعنى الواحد (تعدد المعنى النحوي)	كأن تصلح "استفعل" للطلب كاستخراج. والصيرورة كاستحجر، والمطاوعة كاستقام. والاتخاذ كاستشعر (19)
ظاهرة تعدد المعنى المعجمي مثل ضرب	ضرب له موعداً، ضرب الوالد ابنه، ضرب له قبة، ضرب الله مثلاً، ضرب في الأرض وغيرها (20).

استثمار التراث اللغوي العربي مع الاستفادة من الدراسات اللسانية الأجنبية الحديثة: إنّ نحائنا العرب هم مستنبطو الأصول الأولية لعلم اللغة الحديث، ولم يكن يعوزهم غير المنهجية والتخصص، وتراثنا اللغوي هو المادة الخام التي استقى منها لغويو الغرب نظرياتهم وهو المصدر بطريق مباشر أو غير مباشر لهم ولأعمالهم. لم ينكر هذا تشومسكي بل اعترف بالاستفادة من النحو العربي ممّا هيا له السبيل إلى إخراج نظريته الجديدة المسماة بالنحو التفريعي التحويلي وثبت ذلك في ما كتبه د. مازن الواعر في مجلة اللسانيات في عددها السادس الصادر عن معهد اللسانيات والصوتيات بالجزائر (21).

لئن كانت أحدث نظرية لغوية قد قامت في أساسها على الاستفادة من التراث اللغوي العربي – ولا نزع الاستفادة المطلقة – فهذا يعني أن البحث في هذا التراث هو القاعدة الأساسية لأي تفكير عربي لساني. وسوف يؤدي هذا بلا ريب إلى فهم الكثير من قضايا علم اللسانيات. القضية إذن قراءة لهذا التراث الزاخر؛ ثم محاولة فهم هذا التراث على أكمل وجه. حتى إذا ما تيسر ذلك، أمكن للباحث اللغوي الوقوف على حقيقة هذا



التراث وإدراك مكانته من الدراسات اللسانية الحديثة؛ إذ الأزمة في واقع الأمر، قائمة على هذه القطيعة الملحوظة بين الباحث وتراثه، وعلى تعلقه بالدراسات اللسانية الغربية، والعزوف عن التراث اللغوي العربي، لا لشيء سوى أنه تراث أخلقه الزمن ولو أن لغويي العرب انطلقوا من التراث لو وفروا كثيراً من الجهود في خدمته وبعثه، ومن ثم تقريبه إلى أذهان الناس، والأهم من ذلك تخليص الفكر اللساني العربي من التبعية، وتحريره من الغربة المضروبة عليه، بهدف الوصول إلى إنشاء مدرسة لسانية عربية، لها أسسها وخصائصها ومناهجها.

إن اللغة العربية اليوم تعيش واقعاً مرأ؛ فهي بين مستهين بشأنها، غير آبه بالدقة والصحة في استخدامها لغة للتعبير والاتصال، وداع إلى نبذها، واستبدال اللغة الأجنبية بها في التدريس والتأليف، مدعياً أنها عاجزة عن مواكبة العلم والتكنولوجيا، والاستجابة لما يحدث فيهما من تطور متسارع، ومناد بضرورة استخدام العاميات لغة للإعلام والإنتاج الأدبي، زاعماً أنها الوسيلة الأنجح في مخاطبة الجماهير، والوصول إلى عقولهم وقلوبهم. إن المجتمع الناطق بالعربية لا يدري أن لغته الأم هو طوق النجاة الوحيد وسبيله للابتكار والإنتاج والإبداع كما كان في القدم. إنه لا يدري أنه بتخليه عنها يفقد قدراته وإمكانياته وهذا ما يحدث فعلاً.

قديمًا قال الشاعر:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا فَمَا لَزَمَانُنَا عَيْبُ سَوَانَا

ونقول على لسان الحال

نَعِيبُ لَغَتَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا فَمَا لِلغَتْنَا عَيْبُ سَوَانَا

تلك الدعاوي المغرضة الصادرة من أصحاب النوايا الخبيثة يريدون منها زعزعة الوحدة العربية الإسلامية؛ لأنهم يعرفون دور الإسلام في



الحفاظ عليها؛ حيث أمدّها بثقافة عربية شاملة تتمثل في التاريخ الإسلامي، والفقه، وسائر علوم الدين، ولولا الإسلام لأصبحت اللغة العربية لغة تاريخية كالبطية واللاتينية مثلاً. واللغة من الأمور التي يرى فيها كلّ فرد نفسه مضطراً إلى الخضوع لما يرسمه وكل خروج على نظامها ولو كان عن خطأ أو جهل يلقي من المجتمع مقاومة تكفل له رد الأمور إلى نصابها الصحيح، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء. فإذا أخطأ فرد في نطق كلمة ما، أو استخدمها في غير مدلولها، أو خرج في تركيب عبارته عن القواعد التي ترسمها لغته، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه ورموه بالغفلة والجهل، والذين يريدون زعزعة اللغة العربية باستبدال حروفها بحروف لاتينية، أو إحلال العامية مكانها فليخترع ذلك العبقري لغة تتماشى ولغة أسياده، واللغة العربية محفوظة بحفظ الله للقرآن الكريم. إن العرب تتحمل مسؤولية خدمة هذه اللغة لسبب أهم وهو أنّها لغة القرآن، فاللغة العربية لها خصائص لا يمكن أن تشاركها فيها لغة أخرى فهي تنفرد بكونها لغة القرآن، وهذا السبب الجوهرى هو الذي يحمل أتباع الدين الإسلامى الناطقين باللسان العربى مسؤولية ضخمة، ولو كنا قد قمنا بمسؤوليتنا تجاه اللغة العربية لكانت من اللغة الأولى التي تنافس الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

الإحالات



- 1 (يراجع المنصف في شرح ابن جني لكتاب التصريف، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله الأمين، مطبعة الحلبي 1954/ج1 ص4، والخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية دار الهدى بيروت 133/2.
- 2 (يراجع فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك / ط2 / 1964 ص294.
- 3 (يراجع مقدمة في علم المصطلح، علي القاسمي، مطبعة النهضة المصرية القاهرة (د،ط) ص 63،62.
- 4 (يراجع علم الدلالة بين النظر والتطبيق، احمد نعيم الكراعين، الطبعة الأولى، مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1413هـ-1993م ص139.
- 5 (يراجع مقدمة في علم المصطلح، ص 95-97.
- 6 (يراجع السابق، ص 73.
- 7 (يراجع موقع الإنترنت، مقابلة د: محمد حماسة عبد اللطيف على قناة: بي بي سي العربية، برنامج نقطة حوار .
- 8 (يراجع موقع الإنترنت أ.د سلوى حمادة، قسم بحوث المعلوماتية، معهد بحوث الإلكترونيات.
- 9 (يراجع موقع الإنترنت عبد الله بن مسلم الهاشمي، دور منهاج اللغة العربية في الحفاظ على الهوية العربية ومواجهة تحديات العولمة، مؤسسة الفكر العربي: المكتبة الرقمية، 2010م <http://www.arabthought.org/node/295> .



10) يراجع موقع الإنترنت أ.د. سلوى حمادة، قسم بحوث المعلوماتية، معهد بحوث الإلكترونيات.

11) يراجع موقع الإنترنت عبد الله بن مسلم الهاشمي، دور منهاج اللغة العربية في الحفاظ على الهوية العربية ومواجهة تحديات العولمة، مؤسسة الفكر العربي: المكتبة الرقمية، 2010م <http://www.arabthought.org/node/295>

12) يراجع علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العلمية، علي القاسمي، الطبعة الأولى 2008م، مطبعة مكتبة لبنان ناشرون، ص 109.

13) يراجع موقع الإنترنت تركي رابح، "دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982.

14) يراجع موقع الإنترنت أ.د. سلوى حمادة، قسم بحوث المعلوماتية، معهد بحوث الإلكترونيات.

15) يراجع موقع الإنترنت موقع الإنترنت أ.د. سلوى حمادة، قسم بحوث المعلوماتية، معهد بحوث الإلكترونيات.

16) يراجع موقع الإنترنت أ.د. سلوى حمادة، قسم بحوث المعلوماتية، معهد بحوث الإلكترونيات.

17) يراجع موقع الإنترنت أ.د. سلوى حمادة، " تجهيز اللغة العربية للتصدي لطوفان المعلومات و العولمة"، ورشة التعليم والتدريب باللغة العربية في مجال الحاسبات ج. م. ع، 2003.

18) يراجع موقع الإنترنت عبد الله بن مسلم الهاشمي، دور منهاج اللغة العربية في الحفاظ على الهوية العربية ومواجهة تحديات العولمة، مؤسسة الفكر العربي: المكتبة الرقمية، 2010م <http://www.arabthought.org/node/295>



19) يراجع موقع الإنترنت أ.د. سلوى حمادة، " تجهيز اللغة العربية للتصدي لطوفان المعلومات و العولمة"، ورشة التعليم والتدريب باللغة العربية في مجال الحاسبات ج. م. ع، 2003.

موقع الإنترنت

20) يراجع موقع الإنترنت أ.د. سلوى حمادة، " تجهيز اللغة العربية للتصدي لطوفان المعلومات و العولمة"، ورشة التعليم والتدريب باللغة العربية في مجال الحاسبات ج. م. ع، 2003.

21) يراجع اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة، كارم السيد غنيم، عالم الفكر، المجلد التاسع عشر، العدد الرابع، يناير، مارس، 1989، الكويت، ص. 37-80.